الغنـــاء والموسيقى
وحالهما فى مصر والغرب
للأستاذ محمد توحيد السلحدار بك

— ٣ —

اشتد الاتصال بين مصر والغرب منذ أوائل القرن الماضى بتعدد ضروبه ، مع الزمن ، وتشعب دروبه ؛ فنمت نزعة المصريين إلى تقليد الغربيين ، شأن المتخلف المستضعف مع المتقدم صاحب الشوكة والغلبة السياسية

وخرج العالم من الحرب الكبيرة الماضية ظمآن إلى التشييد والتجديد والتفوق ، مبتلى بأنواع من الفساد وصنوف من الادواء ، وأدرك عندنا جيل نبت فى أثنائها أو بعيدها ، واتسع أمامه ميدان التقليد فى الضلالة والهدى ؛ وكثر بيننا سالكو مناهجه ومدعو العلم والفن ، والابتكار والعبقرية ؛ فوجد بطيئة الحال من دعا إلى التجديد فى الغناء والموسيقى ، وإلى تقليد الغربيين فيهما ، وأقبل عليه فريق من المشتغلين بهما

قام بعضهم بتقليد طائش وهم يحسبون أنهم يحسنون مثال الغرب فى فنه ؛ وكان الأصوب والأجدى ألا يقدم إلا من كان على قدر من المعرفة بفنهم ، وبماهيته الأصلية وأصوله وأنواعه ، مع صحة الفهم لتعابيره ، كى يكون فى مأمن من تشويه ما فى يده بأخلاط لا هى من هذا ولا هى من ذاك ، كما صنع أناس لا يعرفون من الغناء والموسيقى جملة ، إن عرفوا ، سوى المقام وربع المقام وبعض النغمات ومواقعها على المعازف ، وسوى أغنية ما يغنون أو يعزفون من الألحان الشرقية والغربية

تورط هؤلاء فى تخليط قديمهم المسيخ بما يسرقون ويحرفون من الألحان والموسيقى الغربية القديمة والحديثة ، ومن أصوات « الجاز » وهم يسمون هذا الخليط الغريب من ألحانهم وغنائهم وموسيقاهم فناً وتجديداً ، مع أن هذا الجديد موصوم بالعيوب المبينة فى هذه الكلمات ، ومع ركوده فى قرار سحيق يبعد به كل البعد عن مستوى الفن الحقيقى الذى أوضحنا ماهيته الأصلية

فكل لحن من أكثر جديدهم ألف صنف (أو سلطة روسية — على استعارة فى العامية الفرنسية للمجموع المشوش من الأشياء المختلفة) فقد تجد فى هذه السلطة العجيبة عبارة صوتية ممسوخة من أوبرا ، تتصل بأخرى من شارلستون ، تعانق ثالثة من لحن دور عربى تنتهى إلى نغم من تنجو أو رُمبا ، يتعلق بذنبه شىء من موسيقى « عشرة بلدى » وماذلك إلا تنافر صارخ بين دلالات موسيقية على مدلولات تجمع غضبة مستفحلة — مثلاً — إلى خلاعة إلى بكاء إلى إيحاء شهوى ، إلى ما لسنا نفهم فى الغناء الجديد أو المبتكر ، من أصوات يمطُّ ويمدُّ فيها حرف أو أحرف مداً قلقاً فى مواقعه ، شاطاً خالياً من التناسب مضحكاً فى شذوذه ؛ وتسمع منها جلجلات مستنكرة ينبو عنها الطبع ،

عنهم خير ما أنتجوا . ولقد كان لذلك أثر كبير فى اتساع مداركه وتفكيره ، بل فى قدرته على الدفاع عن الإسلام وتخليصه من الشوائب التى علقت به فى عصور الركود والجمود ، وتفهيم المسلمين وغير المسلمين حقائقه السامية . ولا أعتقد أنه كان يصل إلى هذه المنزلة لو اقتصر فى علمه وإدراكه على مدارك التراث الشرقى . ولا أعتقد أن معاصريه من العلماء الذين اقتصروا على التراث الشرقى قد وصلوا إلى مثل هذه المنزلة أو خدموا الإسلام مثلما خدمه الأستاذ الإمام

فحينما حمل (هانوتو) حملاته المشهورة على الإسلام لم نجد من يرد هذه الحملات ويفندها تفنيداً علمياً سديداً مثل الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وكذلك لا نجدون كتاباً دحض حجج الطاعنين فى الإسلام مثل كتابه (الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية) ومن يطالع هذا الكتاب أو يطالع رده على هانوتو يجد مبلغ ما اقتبسه من الفلسفة الأوربية والعلم الأوربى والشواهد الأوربية

قد يكون لنبوغ الشيخ محمد عبده دخل فيما بلغه من المكانة العلمية ، ولكن هذا النبوغ ذاته قد وجهه إلى الاقتباس من التراث الأوربى إذ وجده ضرورياً لاكتمال نضجه وثقافته وعلمه وفى الحديث الشريف : (اطلبوا العلم ولو فى الصين)

وصفوة القول أن التراث الشرقى يحتوى ولا شك على كنوز من العلم والحكمة والأدب ، ولكننا فى حاجة أيضاً إلى كنوز التراث الغربى الحديث لكى يتم لنا النضج والكمال فى حياتنا العقلية

عبد الرحمن الرافعى

وخلخلات مستغربة غالباً ، لوقوعها في مواضع ليست لها بين هويل ونواح طويل

واللحن البديع في الغناء على الذوق الآن (الموضة : à la mode) ، مركب أيضاً ، بعضه شرقي وبعضه غربي ، يولد مسخاً على سنة هذا المذهب الحديث حتى في الأغنية العربية التي يلفقونها على أوزان لحن بأكمله من رمبا مشهورة أو تنسجو معروف ؛ إذ يدخلون فيه عبارات صوتية من ألحان غربية مباينة له وإذ تتنافر مدلولاته الصوتية ومعاني كلام الأغنية في أذن من يدرك اختلاف المقام المعيّن بالنص العربي ، والمقام المعين باللحن خصوصاً إذا كان يعرف كلام الأغنية الغربية التي سُرق منها اللحن ، فأبتع بهذا الفن الزائف !

الحق أننا لم نفهم غرض القائلين بأن الموسيقى الغربية أقدر من الشرقية الحاضرة ، وبأنه يجب من أجل ذلك أن نحتذي على مثل منشئها في موسيقانا ؛ فلم نفطن لما يجعل بنا أن نقلد فيه الغربيين ، بل اعتززنا بفننا الضال ، محدود الإحساس والمدى توهما منا أن موسيقانا أوسع مجالاً وأقدر بربع المقام الذي به نفاخر ونكابر ، ومن قلّت معرفته زاد اعتقاده المعرفة

كان الأحرى أن نقلد غناء الغرب وموسيقاه من حيث هما إجهار بالدلالات الصوتية في الكلام ، أي لغة نغمية تعبر تعبيره عن خواطر القلب وأحاسيس النفس وجلاجلها ، لأن تلك الدلالات مصداق القائل :

« إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلا »

نعم ، كان الأحرى أن نقلد غناء الغرب وموسيقاه من حيث هما يصفان ما يصف الكلام ، ويتناولان مثله شتى الموضوعات من نواحي الحياة الإنسانية وظواهر الطبيعة ومظاهرها التي يتأثر منها الإنسان الحي في أحشائها ، لأنهما يساران دلالة اللفظ الصوتية ، مُفخّمين لها بالإنشاء الفنائي وبالإنشاء الموسيقي ، ويصفان مواقف المسرحيات التي تمثل الحياة من الأوجه المختلفة وكان يحسن أن نقلد الغرب فيما ارتقت إليه موسيقاه من التصوير[1] الذي عظم شأنه بالتحسين والابتكار في المعازف

ولقد رأى زُوّار معرض الموسيقى بمدينة فرانكفور الألمانية سنة ١٩٢٨ أن معازف الغربيين كانت تشبه معازف الشرقيين ، وأنهم ظلوا يحسّنونها ويستحدثون غيرها حتى أصبحت آلاتهم الموسيقية متقنة ، ميسّرة للمنشئ الموسيقي أن يزوّق سياق اللحن الأصلي بألوان من أصواتها تصاحبه وتتمشّقه وتؤنّقه في تواؤم بينها وموافقة له ، فتعجب بهذا التصوير كل وحدة مملة وكل أطراد مسئم . وقد يبلغ عدد العازفين في النوبة الكبرى زهاء مائة

ذلك كله هو الشيء الجوهري الذي يجب أن نعالج تقليد الغربيين فيه عسى أن يشبه فننا فنّ الأحياء في العبارة عن الشعور السليم والمدارك السامية ، وإلا فما فضل ربع المقام الزائد ؟ وماذا يفيدنا ونحن نقف جامدين به وبالمقامات والنغمات جميعاً عند موضوع واحد محدود ليس فيه غير الذلة البشعة ، والحزن الثقال ، والشهوة الوضيعة ؟ ولماذا نرضى بالجمود وليس في فطرتنا الشرقية شيء يمنعنا من التعبير الفني عن حركات ما أودعنا الخالق وأودع الغربيين على السواء من نفس بشرية واحدة وغرائز وملكات متماثلة ؟

يعتذر بعض المغنين والموسيقيين عن عيوب فنّهم بذوق الجمهور الذي يرتاح إليه ولا يقبل منه بديلاً . وهم على حق من حيث أنهم من هذا الجمهور وأنه يحتملهم ، ومن حيث أن الذوق كالمثل الأعلى : ثمرة تنتجها عناصر عديدة منها الوراثة ، والبيئة والتطور .

لكن حقّ كذلك أن من عوامل التطور تأثير البيئة في الأفراد وتأثرها منهم ، خصوصاً من الشخصيات القوية بينهم ؛ فالفنان يؤثر في بيئته وجمهوره وإن تأثر منهما ، ومن هنا نصيبه في تهذيب ذوق الجمهور وإعلاء مثله الأعلى بقدر مواهبه وسحر فنه ، ومن هنا تبعة الفنون الضالة ومسئولية أصحابها الخلقية في إفساد الأذواق

وحق أيضاً أن أولئك طلاب منفعة وليسوا بفنانين إلا مجازاً ، لأن حب فنه لا يضحيه قلقاً للعامة والجماهير ، بل يقدسه قانعاً من الكسب بما يُمسك الرمق . وإن شئت مثلاً لتقديس الفن فانظر كيف أن الموسيقار الفرنسي « بيزيه[2] » — منشئ موسيقى كرمن ، الرواية المشهورة عند فنانينا منذ ألف الحلمي

(١) Harmonie

(٢) Georges Bizet

ألحان أغانيها العربية[٣] — لم يستسلم لذوق مواطنيه الفرنسيين ، حين استهجنوا هذه الموسيقى الوصفية التي أبدع فيها صور بها من حياة الإسبانيين ، ولم يهمل أسلوبه الفني ؛ فلما علا قدره بكرمن في عاصمة النمسويين وطار صيته رجعوا عن خطئهم ، وعرفوا فضل نابغتهم .

نحن إن كففنا عن العيش في الظلام ، وفتحنا بصائرنا لنور الحق ، وسلك الموهوبون منا سبل الإصلاح ، ظهر فينا الملحن الأحوزي والموسيقار المبقري

فإذا أتيح للموسيقى والغناء المصريين أن يظهر من عبيهما فنانون لا تمحو شخصياتهم القوية بشير فنهم ، ويعرفون ما عندنا وعند غيرنا ، فإنهم يأتون بالجديد السليم الذي يسري في النفوس ، ويسوق طوائف المحترفين والهواة والمستمعين إلى الطريق القويم فينصلح الذوق العام شيئاً فشيئاً ؛ ثم يتصعد مستوى الفن مع انتشار التعليم والثقافة ، وارتقاء البيئة والحياة الاجتماعية ، فتبلغ الشأو بعد حين . ووجود نقاد يدعون إلى سلوك سبل الإصلاح هو علامة أوانه بل آية إتيانه .

ومن لم يصدق ما قرأ في هذه الكلمات فإني أوصيه بأن يطلع على بعض كتب الموسيقى الشرقية ، وعلى شيء من تاريخ الموسيقى الغربية ومذاهب أصحابها ونقادها ؛ وبأن يصغي بانتباه إلى مختارات منها بإرشاد من يفهمها[٤] ؛ ولعله يستيقن بعد ذلك أن سبيل الإصلاح والترقي في الغناء والموسيقى عندنا هو دراستهما دراسة فنية ثقافية جدية ، وتقليد الغرب فيما تقدمت الإشارة إليه ؛ وليس شك في أن المعارضين يسلمون بهذا في مستقبل قريب أو بعيد ، تسليم أناس كانوا قبل سنين أدبرت ينعون على المستنيرين معالجتهم إنقاذ اللغة والأدب من جمود طالما أرادوها عليه ، ويرمون بما ليس دون الكفر كل من قال بوجوب الإصلاح من شئون الأزهر

محمد توفيق السلحدار

(٣) كتبنا نقداً لتمثيل هذه الرواية بالعربية ، ولألحانها وموسيقاها التي ألفها الخلعي ، ولعله نقد يزيد هذه الكلمات وضوحاً لمن يرجع إليه ؛ وقد نشرته الأهرام بأعداد نظنها صدرت من منتصف ابريل سنة ١٩١٧

(٤) ان محطة الاذاعة تسمع الجمهور من حين إلى حين بعيد شيئاً من الموسيقى الغربية ، وانها لتحسن صنعاً اذا هي ساعدت على دفع المغنين والموسيقيين في حركة اصلاح ، وذلك بان تذيع مرة على الأقل في الأسبوع مختارات من الموسيقى الغربية تعزفها نوبة كاملة ، جديرة بعزفها ، مختارات مخصوصة يتقدم كلا منها شرح لموضوعه وبيان لدلالاته الصوتية ، وللفرق بينه وبين سابقه ولاحقه ، ولو بايجاز .

الأفصاح

المعجم العربي الفذ ، وهو خلاصة وافية للمخصص وغيره من المعجمات ، يرتب الألفاظ العربية على حسب معانيها ، ويسعفك باللفظ للمعنى المراد ، يعين العلماء على وضع المصطلحات العربية في العلوم المختلفة ، ولا يستغني عنه مترجم ولا أديب ، ٨٠٠ صفحة تقريباً ، طبع دار الكتب ، أشرفت طبعته على النفاد ، ثمنه ٢٥ قرشاً يطلب من مجلة الرسالة ومن المكتبات الكبيرة ومن مؤلفيه :

حسين يوسف موسى
المدرس بالمدرسة السعيدية الثانوية بالجيزة

عبد الفتاح الصعيدي
رئيس التحرير بمجمع فؤاد الأول للغة العربية

الأنصار

المجلة الجديرة التي يقدرها أصدقاء الثقافة الإسلامية من الكتاب ورجال التربية والفقه والصحفيين

ترسل الاشتراكات في مجلة « الأنصار » بعنوان « الرسالة » صدر العدد الثالث وتطلب الأعداد من دار « الرسالة » ومن مكتبة النهضة المصرية بشارع عدلي وشارع الدابغ وفروعها بالجامعة

وثمن العدد قرش صاغ — العدد الأول نفد

الاشتراك السنوي خمسون قرشاً